المدرسة التجارية كمقدمات لميلاد الرأسمالية

شهدت أوروبا في الفترة الممتدة ما بين القرن الخامس عشر والثامن عشر ظهور تيار اقتصادي جديد يطلق عليه التيار أو المذهب التجاري وقد عرفت بداية القرن الخامس عشر عدة تحولات أدت إلى إنهيار النظام الإقطاعي، وظهور تيار جديد عرف بالتيار التجاري أو المركنتيلي.

أولا :عوامل ظهور المنهج التجاري.

تجمعت عوامل عديدة أدت بهذا التيار إلى البروز يمكن تلخيصها:

- 1إنهيار الإقطاع :

وما ارفقه من هجرة الأقنان من الأراضي الزراعية إلى المدن مما ساعد على ازدهار التجارة والتبادلات، وخروج الجتمع الأوربي من عهد النظام الإقطاعي المعلق الذي يقوم على الإنتاج للاستهلاك الذاتي إلى نظام السوق الذي يقوم على الإنتاج للمبادلة والتداول، حيث تم الفصل بين المنتج والمستهلك وظهور التاجر باعتباره وسيطًا بين عملية الإنتاج والتوزيع **"وهذا ما أعطى الأهمية لرؤوس الأموال كصورة جديدة لتراكم الثورة القومية بعد أن كانت متمثلة أساسًا في الأراضي الزراعية وقد ساعد على التراكم الرأسمالي اختراع النقود كوحدة لمختلف القيم الإقتصادية، فالنقود هي التي أضفت مرونة كبيرة على المعاملات وسهلت انتقال الأموال وساهمت في ازدهار التجارة وفي تعميم العمل والتخصص".**

2-ظهور سلطة الدولة القومية:

ظهرت الدولة كتنظيم سياسي واقتصادي وأداة لحماية الطبقة التجارية والحرفية الصاعدة، من الإقطاعين الذين كانوا يفرضون عليهم ضرائب مقابل السماح لهم بالمرور لممارسة التجارة على أراضيهم، فالعامل المادي (رؤوس الأموال) هو المحرك الأساسي والدافع الحقيقي للتقدم والتطور، فالواقع الإقتصادي للشعوب هو الذي يرسم واقعه السياسي والاجتماعي.

3- الكشوفات الجغرافية:

أدت حركة الكشف الأولى إلى نتائج لم تكن متوقعة، فاكتشاف القارة الأمريكية ورأس الرجاء الصالح والسواحل الجنوبية الشرقية والغربية للقارة الإفريقية ولد الرغبة في تحقيق الربح التجاري للحصول على الذهب والفضة، حيث أتاحت هذه الكشوفات مجالاً واسعًا لهذا النوع من الكسب. وهذا ما شجع على ظهور ثروة نقدية بسبب إنتاج كميات هائلة من الذهب في هذه المناطق من العالم، والذي ساعد على إثراء الطبقة التجارية والتي أصبح يطلق عليها الطبقة البرجوازية ومكنتهم من تمويل مشاريع عدة.

4- الإصلاحات الدينية التي عرفتها أوروبا:

لقد كان التيار البروتستانتي الإصلاحي دور كبير في التخلص من الذهنيات والمعتقدات السابقة الموسومة بالانهزامية والإستسلامية والتي تعتبر أن سعادة الفرد تكمن في تقشفه وعفافه المادي، وعدم الجري وراء الأرباح لأن السعادة لن تتحقق على الأرض وإنما تتحقق في عالم آخر، هذه الأفكار استطاع التيار البروتستانتي أن يتخلص منها ويجعل من الأرباح علامة رضا والعمل عنصرا مقدسًا، مما شجع عن التجارة.

5- تزايد نمو عدد السكان:

خاصة في المدن رافقه زيادة في الإنتاج مما ساعد على تشجيع وانتشار النشاط التجاري.

ثانيا :أهم أفكار ومبادئ المركنتيلية.

تبنى رواد المدرسة التجارية مجموعة من المبادئ والأفكار يمكن تلخيصها:

الثروة مصدر للقيمة:

الثروة هي أهم ما يحقق قوة الدولة، وتعرف على أنها مقدار ما يملكه البلد من المعدن النفيس المتمثل في الذهب والفضة وبقية المعادن النفيسة، فهذه المعادن أساس ثروة وقوة الدولة، ولهذا على كل دولة السعي بكل الوسائل للحصول عليها بأكبر قدر ممكن. وباختصار يعتقد التجاريون أن المعادن النفيسة مصدر للثروة ومخزن للقيمة.

2-ثبات حجم الثروة:

يعتقد رواد المدرسة التجارية أن الثروة الكلية في الكرة الأرضية ثابتة وينجر عن هذا الثبات في الحجم أن كل ما تكتسبه الدولة من هذه الثروة المتمثلة في المعادن النفيسة إنما يكون على حساب فقدانه من دولة أخرى، وهذا ما يفسر الطابع الوطني والعدائي لتعاليمهم، لأن ثراء أي بلد لا يكون إلا على حساب البلدان الأخرى.

3-الموقف السلبي تجاه المنافسة:

يشجع التجاريون على الاحتكار والتحكم في الأسعار والمنتجات، وبالتالي فإن لهم موقف سلبي من المنافسة بين الدول، لأن هذه المنافسة تقلل من حضوض الدولة في الحصول على المعادن النفيسة. ولهذا فإن الدولة تسعى دائما إلى تحقيق فائض في الميزان التجاري، ولن يتم لذلك إلا من خلال استغلال مناجم والاهتمام بالتجارة الخارجية من أجل تحقيق فائض في الميزان التجاري وهذا بزيادة الصادرات والتقليل من الواردات.

4- تدخل الدولة في النشاط التجاري لاحتفاظ بالمعادن النفيسة:

لكي يتعين على الدولة الاحتفاظ بالمعادن النفيسة واقتناء أكبر قدر ممكن منها لزيادة قوتها وجب عليها التدخل في النشاط التجاري وتحديدا في التجارة الخارجية بغية تحقيق فائض في الميزان التجاري وذلك باتباع الإجراءات التالية:

- تشجيع الصاد ا رت وعرقلة الواردات وذلك بفرض ضرائب جمركية عليها.
- تطوير الصناعات الوطنية للتحرر من التبعية للدول الأخرى.
- إستغلال المناجم المتواجدة في المستعمرات أحسن استغلال.
- صناعة وتشييد السفن وتطوير الحركة البحرية لنقل السلع المصدرة.

5-تشجيع النمو الديمغرافي:

اعتقد التجاريون أن الزيادة السكانية تزيد من اليد العاملة وزيادة تعداد الجيوش، فالبنسبة لليد العاملة، فإن الزيادة في عدد السكان سيساعد في الحصول على اليد العاملة الرخيصة، مما يزيد من النمو ويساعد على تجميع الثروة. أما بخصوص زيادة تعداد الجيوش، فإنها تساعد على الحركة الاستعمارية للحصول على أكبر قدر من المناجم وبالتالي زيادة في قوة الدولة .

ثالثا :خصائص المدرسة التجارية.

من خلال التطرق إلى مبادئ المدرسة التجارية يمكن استنتاج الخصائص التالية:

- 1مدرسة نقدية كون أن المعادن النفيسة تعتبر عماد الثروة والنقود هي مستودع للقيمة.

- 2المدرسة التجارية مدرسة وطنية لأن جل أفكار المدرسة انصبت على رعاية المصلحة الوطنية للدولة قبل مصالح مواطنيها.

- 3مدرسة تدعو إلى تدخل الدولة لتحقيق المصلحة العامة لمواطني الدولة خاصة في الجانب الاقتصادي.

ربعا :السياسات الإقتصادية لأهم الدول الأوروبية في عصر لتجاريين.

1-السياسة التجارية الإسبانية (السياسة المعدنية):

يطلق مصطلح الاستعمار التقليدي على كل من البرتغال وإسبانيا، حيث استطاع الحصول على كميات كبيرة من الذهب القادم من مستعم ا رتها في أمريكا الجنوبية.

وقد تم إطلاق تسمية السياسة المعدنية كونها قامت على أساس الحصول على المعدن النفيس خاصة الذهب والفضة من مناجم المستعمرات بشكل مباشر أو غير مباشر من خلال التجارة الدولية.

وفي مقابل ذلك حظر ومنع تقدير الذهب والفضة منعًا مطلقًا والعمل على زيادته من خلال سياسة الرقابة المباشرة على عمليات التصدير والإستراد.

وقد طبقت إسبانيا الإجراءات التالية:

أ .إجبار السفن الإسبانية التي تنقل السلع للتصدير بإعادة قيمتها بالذهب والفضة إلى داخل المملكة الإسبانية، أي رفض مقايضة سلعة بسلع أخرى.

ب .منع التجار الأجانب الذين يمارسون مهنة البيع داخل أراضي إسبانيا من إخراج ثمنها نقدًا لأن هذه العملة ستساعد على خروج المعادن النفيسة خارج الدولة.

ج .السماح بخروج المعادن النفيسة لبعض الاستثناءات لتسديد دون الملك .

2-السياسة التجارية الفرنسية:

يطلق على السياسة التجارية الفرنسية بالسياسة الصناعية، والتي تنسب إلى الوزير الفرنسي **كولبير** والذي حاول تطبيقها في فرنسا رغبة في الحصول على المعادن النفيسة.

تمحورت السياسة التجارية الفرنسية في الرغبة لزيادة الصادرات والتقليل من الواردات، شريطة أن يكون هذه الصادرات من السلع الصناعية وليس من المنتجات الفلاحية، لأن قيمة المنتجات الصناعية أكبر ولأنها صعبة الإنتاج في الدول الأخرى مما يزيد الطلب عليها، إضافة إلى كونها لا تخضع لتقلبات العوامل الطبيعية كما هو الحال مع المنتوجات الزراعية.

3-السياسة التجارية الإنجليزية:

يطلق على هذه السياسة بالسياسة التجارية لأنها تعتمد على تشجيع المبادلات التجارية الدولية للحصول على الذهب والفضة وغيرها من المعادن النفيسة.

ساهمت العوامل الجغرافية لبريطانيا في انتهاج هذه السياسة، لأنها دولة محاطة بالمياه من كل جانب مما يساعدها على تحريك أسطولها البحري لهدف التبادل التجاري، فقد كانت بريطانيا تنقل بعض السلع والبضائع للدول الأخرى مقابل حصولها على الذهب والفضة، وعلى العكس من فرنسا، فإن بريطانيا أهملت الصناعات الوطنية، واهتمت فقط بالتجارة الخارجية.

خامسا :السياسات التي نادت بها المدرسة التجارية لتحقيق ميزان تجاري رابح.

مر الفكر المركنتيلي بثلاث مراحل أساسية من حيث السياسات المنتهجة لتحقيق ميزات تجاري رابح يمكن ذكرها:

أ- المرحلة الأولى:

سادت في هذه المرحلة السياسة المعدنية والتي تؤكد على منح وحظر تصدير المعادن النفيسة

في شكل أو صورة والعمل على زيادة رصيد الدولة من هذه المعادن النفيسة، وأحسن آلية لتحقيق ذلك

هو الرقابة المباشرة على كل العمليات المتعلقة بالإستراد والتصدير.

ب-المرحلة الثانية:

تنازلت الدولة عن مبدأ الرقابة المباشرة في عملية التصدير والإستراد على حدى، حيث اكتفت فقط بالرقابة المباشرة على مجموعة المعاملات التجارية مع كل دولة على حدى للتأكد من تحقيق الربح في الميزان التجاري.

ج- المرحلة الثالثة:

في هذه المرحلة تبنت الدولة المفهوم الحديث للميزان التجاري، حيث لم يعد هناك أي مبرر لتحقيق ميزان تجاري رابح مع كل دولة على حدى حيث يكون للدولة الميزان التجاري العام إيجابيا، وإنما يكفي أن تكون مجموع قيمة الصاد ا رت أكبر من مجموع قيمة الواردات بغض النظر عن التوزيع الجغرافي للتجارة الخارجية.

سادسا :إيجابيات وسلبيات الفكر التجاري .

- 1**الإيجابيات :** هناك مجموع من الجوانب الإيجابية في الفكر التجاري يمكن ذكرها.

أ-الإنتقال من النظام الإقطاعي المغلق إلى القطاع التجاري المنفتح على التجارة الدولية وعلى الأسواق التجارية، كما تخلص الفكر الإقتصادي من القيود الدينية التي سادت في عهد الإقطاع مما أضعف من سلطة الكنيسة.

ب- الإنتقال من التبادل العيني إلى التبادل النقدي، مما ساعد على توفير رؤوس الأموال وإنشاء البنوك.

ج -ساهم الفكر التجاري في إعطاء الصناعة الأولوية على حساب الزراع التي كانت هي الأساس في عهد الإقطاع.

2-السلبيات:

أ-حددت المدرسة الماركنتلية قوة الدولة بما تمتلكه من معادن نفيسة، متجاهلة جميع العوامل الإقتصادية الأخرى في حين أن قوة الدولة لا تتحدد فقط بهذان العنصران رغم أهميتها.

ب- اضمحلال وتراجع القطاع الحرفي نتيجة الاهتمام بالتجارة.

ج-ضعف التحليل :بحيث لا يمكن اعتبار هذا التيار الفكري مذهب مثل المذاهب الإقتصادية

المعاصرة، نظرا لضعف وسطحية تحليله للمعاملات الإقتصادية.

د- عدم وضوح الرؤية بخصوص العلاقة بين القيمة والربح.